اصل اللغات الساميّة

(تابع لما في الجزء السابق)

وهناك امران آخران لا بدّ من اعتبارهما في هذا المبحث بل هما عندي في المثابة الاولى من الدلالة على وحدة اللغتين احدهما ما اسميّه بأوتاد اللغة واعني به الكلم التي لا تزيد بزيادة موادّ اللغة ولا تنقص بنقصانها ولا يستغني عنها المتكلّم في حال وذلك من نحو الضمائر والموصولات والاشارات وسائر الادوات والحروف . والثاني الاحوال العارضة للموادّ المتصرّفة في حالتي التجريد والتأليف مما تتقوّم به هيئة اللغة في الجملة وذلك من نحو ابنية الافعال والاسمآء وما يلحقها من الزيادات وكيفية تصريفها وما يعرض لها من احكام الاعلال والادغام الى ما شاكل ذلك . ومن نحو ابتدآء الجملة بالفعل دون الاسم وتأخير الضمائر عن الافعال واسقاط متعلّق المستقرّ من الظروف وحذف العائد المنصوب ومن نحو التقديم للتخصيص أو الحصر واستعمال المضارع في الطلب واسم الفاعل للحال أو الاستقبال وما اشبه هذه الخصائص فانهُ مهما تقلبت الفاظ اللغة وكثر فيها التصرّف في الاوضاع والمعاني لا تخرج عن الهيئة الحاصلة لها بهذين الاعتبارين

فاذا تفقّدتَ هذه الامور كلها بين العربية والعبرانية وجدتها في اللغتين شيئاً واحداً على فروق عارضة لا تعدو الفرق بين سائر الالفاظ المتجانسة في اللغتين مما يعود الى هيئة اللغة في الخارج على ما سبق لنا تقريرهُ . مثال ذلك قولهم في ماضي الغائبة فَعْلاَ اي فعلَتْ يسكنون عين الفعل تخفيفاً ويجعلون موضع التآء هآءً يكتبونها ولا ينطقون بها . وهذه الهآء مطّردة

عندهم في الافعال والاسماء المفردة الاّ اذا اتصل بمصحوبها كلمةٌ اخرى اتصال تركيب من نحو ضمير مفعولٍ أو مضافٍ اليهِ فيحوّلونها تاءً فحالة التجريد عندهم اشبه بحالة الوقف عندنا الاّ انهم اجروها على الاسم والفعل جميعاً . ويقولون في مضارع الغائبات تِفْعلْنا بالتآء في اولهِ قياساً على فعل الواحدة ويضمرون لهنّ في الماضي بالواو يقولون فَعلُواي فَعلْنَ بخلاف المضارع والامر فبالنون وهو من عجيب ما في هذه اللغة . ويستتر الضمير عندهم حيث يستتر عندنا بلا فرق الاّ ان البارز منهُ لا يُحذَف عند اسناد الفعل الى الظاهر فهم يجرون ابداً على لغة اكلوني البراغيث . ويقولون في المثنى والجمع يَدَيْم وحاخاميم بالميم فيهما موضع النون وإلزامهما اليآء مطلقاً لان الاعراب من مخترعات العرب الخاصّة بهم في هذه الطائفة من اللغات . وهذه الميم تُحذَف عند الاضافة كما تُحذَف النون عندنا . وكل همزةٍ دخلت على الكلمة من نحو همزة الاستفهام وهمزة أل والافعال المزيدة فهي هآءٌ عندهم ابداً . وهذه الهآء في الافعال تسقط عند افتتاح مدخولها بزائدٍ آخر كحروف المضارعة وميم اسم الفاعل على حدّ ما في العربية . وعندهم الادغام والاعلال في كثيرٍ من الاحوال على نحو ما عندنا الاّ ان العرب اشدّ حرصاً على بقآء اصول الكلمة والحذف في العبرانية كثيرٌ حتى انهُ قد يفضي الى جهل المحذوف والتباس بعض المواد بغيرها . وهناك فروقٌ اخرى من مثل ما ذكرناهُ لا نطيل باستيفآئها وما بقي من ذلك فانهُ متطابقٌ في الاعمّ الاغلب بحيث لو طرحت على هذه الالفاظ كلها اللباس العربي لم تكد تتوسم فيها من بعدهِ شيئاً غريباً

وجملة الامر انهُ يمكن ان يقـال ان العبرانية ادنى الى الهيئة السامية القديمة لما طرأ في العربية من زيادة الاتساع في الابنية والتصاريف وتهذيب الالفاظ بتبديل بعض مقاطعها وتزيينها بحركات الاواخر مما غيّر هيئتها في الظاهر غير ان ذلك لا يؤخذ حُجّةً على فرعيّة العربيّة كما هو مذهب اكثر المتقدمين لِما ان اللغة تابعةٌ لمكان اهلها من التأنّق في المنطق وحبّ التغالي بالفصاحة والشعر وسائر فنون اللسان وشأن العرب في ذلك اشهر من ان ينبَّه عليهِ . وبعدُ فأين حال العرب من حال العبرانيين وما كانوا فيـهِ من طول الاغتراب والتقلب بين اظهُر الامم المختلفة وكثرة المناهضات والحروب وما عرض عليهم من القهر والاجتياح والجلآء عن مواطنهم حالة كون العرب لم يبرحوا حوزتهم ولم يدينوا الاّ لهواهم فكانوا دهرهم آمنين رخيّي البـال متفرغين لما يريدون من شأنهم . وفضلاً عن ذلك فان العربية بقيت معمورة المعالم مأهولة المواسم على حين كانت العبرانية قد اقوت معاهدها وهجرتها الالسنة من عهدٍ بعيد لا يقلّ عن اثني عشر قرناً من الدهر والعربية في هذا الزمان كلهِ تزداد اتّساعاً وتهذيباً حتى بلغت مبلغهـا المعروف من الكمال والاتقان

وقبل ان اصدر عن هذا البحث لا بدّ لي من تعزيزهِ بشيءٍ من شواهد اوضاع اللغتين اقابل بينها استنباطاً للدليل وهو بحثٌ خفيّ المدرج مشتبه الآثار لكني ساتخيّر منهُ ما هو اشفّ مرآةً واوضح توسُّماً على قدر ما تهتدي اليهِ البصيرة . واقرب ما يحضرني من ذلك صيَغ الضمائر وابدأ منها بضمائر التكلم وهي في العبرانية للمفرد المنفصل أني بالياء بعد النون ولما

فوقهُ نَحنُو بالواو واذا ارادوا المتصل قالوا فقَدْتي مثلاً وفقَدَني بالياء فيهما اي زُرْتُ وزارَني وفَقَدْنُو وفَقَدَنُو بالواو اي زُرْنا وزارَنا جرياً في كلٍّ منهما على لفظ صاحبهِ المنفصل بخلاف ما في العربية كما ترى . فلا جرم ان الاوضاع العبرانية في هذه الضمائر أَقيَس وادلُّ على انها جاريةٌ على لفظ الواضع للملآءمة بين كلٍّ منها وما يناسبهُ . واما ضمائر الخطاب والغيبة فهي متلآئمةٌ عند الفريقين في صورتي الانفصال والاتصال الا ضمائر الجمعين المذكر والمؤنث فانها متخالفة في اللغتين وصوَرها في العبرانية أَتّم وأَتّن للخطاب وهُمْ وهُنْ او هُمَّا وهُنَّا للغيبة . ويقولون في المتصل منها فَقَدْتُمْ وفَقَدْتُنْ ويفقدُو وتفقُدْنَا وهلمَّ جرًّا وهو قريبٌ من اللفظ العربي الاّ ان الصيَغ العربية ادنى من مظنّة اصل الوضع يسهل ردّها اليهِ على وجهٍ يصحّحهُ النقل والقياس . وقبل بيان ذلك لا بدّ من التنبيه على ان اصل انتم وهم أَنْتُمُو وهُمُو بالواو بعد الميم وكذا رأيتهم ومررت بكم وهلمَّ جرًّا بدليل ان هذه الواو تُرَدّ في الاختيار اذا دعا اليها داعٍ كاقامة الوزن في قول الشاعر

سلي ان جهلتِ الناس عنا وعنهمُ فليس سواءً عالمٌ وجهولُ

ويجب ردّها اذا اتصل بهذا الضمير ضميرٌ آخر نحو ضربتموهُ واعطيتهموهُ مما هو مبسوطٌ في اماكنهِ . واصل انتُنَّ وهُنَّ وفروعهما أَنْتُمْنَ وهُمْنَ بميم ساكنة بعدها نونٌ مخفّفة قياساً على ضمير المثنى والمجموع فيما سنبيّنهُ . وتقرير ذلك ان الاصل في ضمائر الغيبة هُوَ للواحد فلما أُريد بهِ الكناية عمّا فوقهُ أُبدِل من واوهِ ميمٌ لانها اقوى على قبول الحركات وأُلحقت بهِ أَلف التثنية وواو الذكور ونون الإناث وقيل هُمَا وهُمُو وهُمْنَ . ثم حُذِفَت الواو من هُمُو

لكثرة الاستعمال اكتفآء بدلالة الميم على ارادة الجمع وأُدغمت ميم هُمْنَ في في النون لتسهيل اللفظ . وحُمِل على الضمير المنفصل الضمير المتصل وعلى ضمائر الغيبة ضمائر الخطاب في جميع صُوَرها ومواقعها على الاطلاق فجرت الضمائر كلها على سَنَنٍ واحد. فاذا تفقدت هذا الاصل في الضمائر العبرانية لم تجد منهُ الاّ آثار اطلال فضلاً عن انك لا تجد في تصريف الماضي ضميراً للغائبات على ما سبق الالماع اليهِ مما يدلّ على نقصٍ في الاوضاع وتخلّفٍ في القياس . لا يقال ان العرب هذّبت هذه الضمائر واحكمت لفظها فان هذا لا يُعقَل ان يكون الاّ من اصل الوضع وما وُضع وضعاً فاسداً أو عن غير رويّةٍ لا يمكن ان يُرَدّ الى اصلٍ محكَم كالذي بيّناهُ . ثم ان ضمير الغيبة بالهآء عند الطائفتين شائعةً في جميع صيَغهِ وتصاريفهِ وبخلافه ضمير الخطاب فانهُ بالتآء في صيغة الرفع وبالكاف في غيرها فكان مُقتضَى القياس ان يكون بلفظٍ واحدٍ في جميع مواقعهِ كما لا يخفى . وقد ورد مصداق هذا القول في بعض لغات اليمن فانهم كانوا يستعملون لهُ الكاف مطّردةً في الرفع وغيرهِ ومن ذلك قول الراجز يا ابن الزُبَير طالما عَصَيْكا اي عَصَيْتَ والنحاة يزعمون ان هذا من قبيل الابدال وهو غير الظاهر . ومقتضى هذه اللغة انهم كانوا يقولون في أنتَ وفروعهِ أنْكَ أنْكُما انكم الى آخرهِ فينطبق على قياس غيرهِ . وحكى بعض الثقات هذا الاستعمال عينهُ في لغة الحبشة وهو مما يؤيد ما قلناهُ وهذا لم يحُكَ في شيءٍ من العبرانية فالظاهر انهُ في العربية والحبشية اثرٌ من آثار القِدم

(ستأتي البقية)